الفصل الرابع

مدرسة القضاء والمجتمع

لم يقتصر أمر المدرسة على امداد المحاكم الشرعية بما تحتاج اليه من قضاة متخصصين ومحامين وكتبه على مستوى عال من الكفاءة فحسب بل قامت باعداد خريجيها للعمل فى حقل التعليم بالمدارس الحكومية بعد أن أهلتهم تربويا والى جانب هذا حملت المدرسة على أعناقها فكرة خدمة البيئة المحيطة بها والمجتمع المصرى بصفة عامة سواء فى النواحى الثقافية أو السياسية أو الاجتماعية فكانت وبحق قبلة الأنظار وصفها أحد أعضاء مجلس النواب بأنها « زهرة المدارس » [1] وبأنها منارة علمية يحق الاقتداء بها فقد زارها رجال المعارف لدراسة نظامها ، وزارها الوافدون من كل صوب للتعرف على أساليبها ومناهجها ، وزارها كبار المعنيين بشئون التعليم والراغبين فى الاصلاح كما زارها السلطان حسين كامل وأعجب بنظامها قائلا « أعتقد أنه ليس عند الثلثمائة والستين مليونا من المسلمين الذين فى العالم مدرسة تماثل هذه المدرسة لا من جهة علومها ، ولا من جهة نظامها الدقيق ، وطاعة تلاميذها لأساتذتهم » [2] وفيما يلى نعرض لأنشطة المدرسة ولنبدأ بالنواحى العلمية والثقافية والاجتماعية .

---

(١) مضابط مجلس النواب : مضبطة الجلسة الأربعين فى ٢٨ مارس ١٩٢٧ ص ٦٤١ .

(٢) المقتطف : الجزء الثالث من المجلد السادس والاربعين أول مارس ١٩١٥ ص ٢١٥ تحت عنوان « الزيارة السلطانية لمدرسة القضاء الشرعى » .

أولا – دور المدرسة العلمى والثقافى والاجتماعى :

كفلت المدرسة لطلبتها صورة مميزة عن الصورة الأزهرية فخرجت للمجتمع قضاة يجمعون بين المعارف الدينية الصحيحة والمعارف الدنيوية كان لهم فضل كبير على الأجيال التى تعاقبت على مصر وعملت فى سلك القضاء كما أمدت المعاهد الدينية بخريجيها المؤهلين للتدريس ، والذين حصلوا على دراسات تربوية داخل المدرسة مما كان له أكبر الأثر فى تحسين أحوال هذه المدارس من الناحية العلمية (٣) .

وكان لأساتذة الكلية الدور البارز فى تخريج الكوادر الصالحة التى كان لها فى الحياة المصرية المعاصرة تأثيرا جد كبير فتلاميذهم على مختلف مستوياتهم انتشروا فى مدن مصر وقراها ونجوعها ينشرون العلم والمعرفة ويديرون مراكز حساسة فى العديد من الادارات الحكومية ؛ والى جانب هؤلاء فان المدرسة قد خرجت للمجتمع من النبهاء والعلماء من ساعدوا على تطويره وكانت لهم اسهاماتهم المعروفة ومن هؤلاء نذكر أحمد أمين الذى بدأ دراسته بالمدرسة عام ١٩٠٧ وعمل بها معيدا فأستاذا وأخرج للمجتمع المصرى كتبه المشهورة فجر وضحى وظهر ويوم الاسلام كما ترك تراثا ضخما فى الفلسفة والأخلاق واللغة والفقه والتراجم وغيرها ساعد على التعرف على الحياة العقلية للاسلام وفسر طبيعتها .

والشيخ محمد أبو زهرة الذى بدأ تعليمه فى هذه المدرسة عام ١٩١٦ وتخرج منها عام ١٩٢٥ وأصبح بعدها من أكبر علماء الشريعة الاسلامية فى عصره وله كتابات عديدة نذكر منها كتاب أبو حنيفة .

---

(٣) امين سامى : المرجع السابق ص ٩٤ .

وأمين الخولى الذى تخرج من القسم العالى بالمدرسة عام١٩٢٠ فلسف كتب الأخلاق القديمة وصاغها فى ثوب قشيب جذاب [٤] .

يضاف الى ذلك أن للمدرسة دور بارز فى شد أزر الجامعة المصرية عند نشأتها فقد أمدتها بأعضاء هيئة التدريس اللازمين للتدريس بها وأبرز مثال على ذلك أحمد أمين وأمين الخولى ، كما شارك أساتذتها فى مناقشة رسائل الدكتوراه التى حدثت بالجامعة المصرية ونذكر من ذلك أن اللجنة التى ناقشت طه حسين فى الدكتوراه كان منها الشيخان محمد المهدى ومحمد الخضرى الأستاذان بالمدرسة .

والى جانب ذلك فانه كان لهذه المدرسة فضل كبير فى تشجيع الأزهريين على اعادة النظر فى مناهجهم ، وساعد على ذلك أن بعض خريجى المدرسة ومدرسيها قد ساهم فى ذلك بتدريس بعض العلوم فيه بطرق جديدة ، فالشيخ حسن منصور الأستاذ بالمدرسة أسند اليه تدريس التفسير فى الأزهر بطريقة أوجدت روحا جديدة بين تلاميذه [٥] مما أوجد الغيرة لدى بعض طلاب الأزهر فسعوا فى النسج على منوالهم والسير على مناهجهم فى تلمس الاصلاح [٦] .

وبالاضافة الى ذلك فقد شارك أساتذة المدرسة فى حركة الترجمة والنشر فالذى ساهم فى ترجمة كتاب تيودور روزشتين الذى دافع عن المسألة المصرية وانتقد الانجليز هو الأستاذ عبد الحميد العبادى أستاذ التاريخ بالمدرسة ، والذى ترجم كتاب « مبادىء الفلسفة » لرابوبورت هو أحمد أمين أستاذ علم الأخلاق بالمدرسة يضاف الى ذلك أن الذى أشرف على لجنة التأليف والترجمة والنشر

---

(٤) د. حامد شعبان : امين الخولى والبحث اللغوى ، القاهرة الانجلو المصرية ١٩٨٠ ص ٧ .

(٥) حافظ وهبه : المرجع السابق ص ٩ — ١٠ .

(٦) مضابط مجلس النواب : مضبطة الجلسة الرابعة والعشرين فى ٣١ يناير ١٩٢٧ ص ٣٥٥ .

مايقرب من الثلاثين عاما وعمل مديرا للادارة الثقافية فى الجامعة العربية ، وقام بانشاء معهد المخطوطات العربية كان أحمد أمين أيضا [٧] .

أما عن المجلة التى أنشأتها المدرسة لتكون لسان حالها [٨] فقد كانت ذات فائدة عامة للمواطنين يقرأون فيها الفتاوى والأحكام الصادرة من المحاكم الشرعية وغيرها ، كما كانت ذات فائدة لطلاب المدرسة تبارت فيها أقلامهم ونشروا فيها مايجيش بنفوسهم وما يجرى داخل مدرستهم مما جعلها تخطو الى الأمام بخطوات أوسع وتتجه الى الحياة النافعة اتجاها أسرع هذا بالاضافة الى أنها كانت صوتا عاليا للمدرسة حملت رسالتها ، وشرحت مايهم الأسرة المصرية فاعترف بها القاصى والدانى ، وقد حرصت المدرسة على أن توفر لها أسباب النجاح والاستقرار فعنت باختيار مديرها على وجه يناسب أهميتها وأثرها فى توجيه المسلمين فاختارت الأستاذ أمين الخولى المدرس بالمدرسة أول مدير لها لما يعرف عنه من التضلع فى الثقافة الاسلامية .

ولم يقتصر دور المدرسة على حلقات الدراسة المنعقدة بها بل فكرت فى البيئة المحيطة بها ، وحاولت الاتصال بالأهالى اتصالا مباشرا فحددت عصر الثلاثاء من كل أسبوع لاقامة برنامجا ثقافيا تدعو اليه أستاذا من خارج المدرسة أو من داخلها أو طالبا من المتفوقين لالقاء محاضرة فى موضوع أعده ، وكانت تصف الكراسى فى فنائها ، وتدعو رجالات الفكر والثقافة لحضور هذا البرنامج ، وكان يشترك فى سماع هذه المحاضرات أحيانا سعد زغلول وقاسم أمين

---

(٧) عامر العقاد : المرجع السابق ص ٦٤ .

(٨) ظهر العدد الأول منها فى ذى القعدة ١٣٤٠ ، وكانت تظهر فى غرة كل شهر عربى ، ويحررها خريجو المدرسة وطلابها .

وغيرهم من كبار رجالات الدولة ومثقفيها ومن أهم المحـاضرات التى ألقيت فى هذه البرامج الثقافية محاضرة ألقاها رفيق بك العظيم تحت عنوان « قضـاء الفرد وقضاء الجماعة » ومحاضرة ألقاها أحمد فهمى العمروسى بك وعنوانها « هربرت سبنسر » ومحاضرات عديدة القاها الشيخ الخضرى نذكر منها « أبو مسلم الخراسانى » و « الغزالى » و « زياد بن ابيه » (٩) .

ومعنى ذلك أن المواسم الثقافية للمدرسة كانت متنوعة لم تقتصر على العلوم الشرعية بل ضمت الى جانبها المحاضرات العلمية والفلسفية والتاريخية .

ولم يتوقف أثر المـدرسة على الناحية التعليمية والثقافية داخل جدرانها بل كانت تمنح مكافئـات على كتب تقرأ أثنـاء الأجازة نذكر منها مقصورة ابن دريد وشرحهـا ، ومختصر صـبح الأعشى ، وكتاب « اميل » لجان جاك روسو والذى يعرض لنظرية التربيـة والتعليم ونحو ذلك ، وكان الفـائز فى هذه المسابقات يمنح جائزة تقرب من الثلاثين جنيها .

هذا عن دور المدرسة العلمى والثقافى أما عن دورها الاجتماعى فمما لاشك فيه أن خريجى هذه المدرسة ممن تولوا القضاء والافتـاء كان لهم فضل كبير فى اصـلاح القضـاء الشرعى فقد وقفوا ذكاءهم وبذلوا شبابهم لخـدمة العـدالة واصـلاح حيـاة الأسرة التى هى عماد الأمة ونواة الجماعة الصالحة ، فبعد أن كانت الأحوال الشخصية للمسلمين فى مصر منذ بدايات الحكم العثمانى لها تعتمـد على مذهب

---

(٩) أحمد امين : حياتى ص ١٢٢ .

الامام أبى حنيفة وحده [١٠] أخذ هؤلاء من المذاهب الأخرى ما كان أكثر تيسيرا على الناس [١١] .

ثانيا : دور المدرسة السياسى :

لقد اجتازت المدرسة معظم فترات حياتها مساندة للحركة الوطنية وزعمائها ومع أن لائحة المدرسة كانت لاتجيز لطلابها الاشتغال بالسياسة أو القيام باضرابات أو مظاهرات داخل المدرسة أو خارجها أو بالاشتراك فى المظاهرات [١٢] فان ماتعرض له الوطن من محن وصعاب ونوائب سواء بفقد زعيم وطنى أو اعتقال سلطات الاحتلال لآخر نتيجة لاصراره على المطالبة بحقوق مصر فى تقرير مصيرها كل ذلك جعل هذا القانون حبرا على ورق ، فقد شارك طلاب الكلية وخريجوها فى الحركة الوطنية المصرية بصورة أو بأخرى وفيما يلى نعرض لهذه المواقف :

١ ــ وفاة الزعيم الوطنى مصطفى كامل :

أضرب طلاب المدرسة وتركوا دروسهم مخالفين لتعليمات ولوائح المدرسة ، وشاركوا طبقات الأمة فى تشييع جنازة الزعيم الوطنى

---

(١٠) ابتداء من عهد السلطان سليمان القانونى بدات الدولة العثمانية تفرض على كل ولاية من ولاياتها قاضيا عثمانيا تعينه من قبلها كما أصدرت تعليماتها بأن يقتصر القضاء على مذهب الامام ابى حنيفة وسار النظام القضائى من عهد محمد على الى عهد عباس الثانى على هذا المنوال ، وبعد أن اعلنت الحماية البريطانية على مصر فى عام ١٩١٤ أصبح لمصر التصرف فى أمورها القضائية ، وخلال ذلك كان خريجو مدرسة القضاء الشرعى قد اخذوا دورهم فى اصلاح احوال المحاكم الشرعية فى مصر .

(١١) حافظ وهبه : المرجع السابق ص ٩ .

(١٢) مدرسة القضاء الشرعى : اللائحة الداخلية ، القاهرة ــ المطبعة الأميرية ١٩٠٧ ص ١١ .

مصطفى كامل يوم ١١ فبراير ١٩٠٨ حيث تركوا دروسهم فى هذا اليوم المشهود الذى نبض فيه قلب الأمة المصرية خلال ذلك الحداد الوطنى فساروا فى الجنـــازة حاملين علم مدرستهم المجلل بالسواد فى احتفال رهيب قال عنه قاسم أمين انه لم ير قلب مصر يخفق سوى مرتين الأولى يوم تنفيذ حكم دنشواى والثانية كانت يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل (١٣) .

٢ ــ ثورة ١٩١٩ :

نظرا لأن مدرسة القضـــاء كانت تعد حسنة من حسنات ســـعد زغلول ومن أعماله الجليلة ، ونظرا لأن عاطف بركات ناظر هذه المدرسة كان من أقرب أقرباء سعد ، ومن أشد المقربين اليه فلا غرو أن يلتحق أفراد هذه المدرسة أساتذة وطلابا بشخص سعد زغلول وبمواقفه سواء تجاه الاحتـــلال أو تجاه الأحزاب الأخرى ، ويعتقـــدون فى صحة كل ماذهب اليه وارتآه والأدلة على ذلك متعددة نذكر منها :

١ ــ عندما تألف الوفد المصرى برئاسة ســـعد زغلول للمطالبـــة باستقلال مصر وما أعقب ذلك من القبض على سعد وصحبه شـــاركت مدرسة القضـــاء الأمة المصرية فى ثورتهـــا ، وكانت تغلى من هـــذه الأحداث كما يغلى غيرها من المدارس العليـــا فاشـــترك طلابهـــا فى المظاهرات الداعية للافراج عن سعد وامتلأت بهم السجون (١٤) كمـــا قام بعضهم بالاشتراك فى الجهاز السرى للثورة فقابلوا عبد الرحمن فهمى سكرتير الوفد الذى أوكل الى بعضهم العـــديد من المهام الوطنية مثل القاء الخطب السياسية فى المساجد عقب صلاة الجمعة لابراز حقوق

---

(١٣) عبد الرحمن الرافعى : مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ، القاهرة ــ النهضة المصرية ــ الطبعة الرابعة ١٩٦٢ ص ٢٧٤ــ٢٧٥ .

(١٤) الثقافة : المقال السابق ص ٣٧ .

مصر فى الاستقلال ، وأهمية الدفاع عن الحرية وتقرير مصير البلاد حتى تتمكن من ادارة أمورها بنفسها هذا الى جانب كتابة المنشورات التى تتعرض للأحداث الوطنية .

والأمثلة على ذلك متعددة نذكر منها أنه على أثر مظاهرة السيدات التى سارت فى شوارع العاصمة يوم ١٦ مارس ١٩١٩ تطالب بالحرية والاستقلال قام أحد أعضاء هذه المدرسة بكتابة منشور مطول فى وصف هذه المظاهرة وأثرها والتهييج بها ، وطبع ووزع على الناس[١٥] واشترك بعضهم فى المظاهرات خصوصا التى ترمى الى التقريب بين الأقباط والمسلمين فكان أحد الطلاب المعممين يركب عربة وبجانبه أحد القساوسة بملابسه الكهنوتية يحملان علما فيه الصليب والهلال تأكيدا على الوحدة الوطنية .

وبعد أن أفرج عن سعد زغلول وسافر كامل سليم سكرتير الوفد الى باريس مع من ذهبوا لاستقبال سعد كان أحمد أمين الأستاذ بمدرسة القضاء هو الذى يقوم بارسال التقارير الى سكرتير الوفد بباريس يطلعه على كل مايستجد من أمور كما كان كامل سليم يرسل الى أحمد أمين الشفرات الجديدة اذا تم تغيير أى شفرة فيقوم بتوصيلها الى أعضاء الوفد فى مصر [١٦] .

٢ ــ عندما انقسم الوفد على نفسه ، وتعالت الهتافات ضد عدلى باشا انضم العديد من طلاب المدرسة الى صف سعد ، وكانوا من المؤيدين والداعين له [١٧] .

---

(١٥) احمد امين ، المرجع السابق ص ١٩٠ .

(١٦) عامر العقاد : المرجع السابق ص ٤٢ ــ ٤٣ .

(١٧) نفسه .

٣ — فى عهد وزارة محمد توفيق نسيم الأولى [١٨] المعروفة بعدم رضائها عن سعد زغلول اجتمع طلاب المدرسة فى فنائها أثناء انعقاد مجلس ادارتها الذى كان يحضره محمد توفيق رفعت وزير المعارف وهتفوا باسم سعد وسقوط وزارة نسيم مما أثار ثائرة الوزير فصب جام غضبه على عاطف بركات ناظر المدرسة متهما اياه بالتحريض على هذه المظاهرة ؛ ولم يأت المساء حتى أعلن مجلس الوزراء قراره باحالة عاطف بركات الى المعاش [١٩] .

٤ — عندما أفرج عن أعضاء الوفد المصرى بما فيهم عاطف بركات ناظر المدرسة السابق ؛ وعادوا من منفاهم قام طلاب المدرسة بالرغم من المخاطر بدعوة أعضاء الوفد الى حفل اكبارا لتضحيتهم فى سبيل الوطن [٢٠] .

وهكذا أدت المدرسة دورها فى المجتمع فى حدود امكاناتها المتاحة فأثبتت قدرتها على العطاء ، ومواكبتها للنهضة التى عايشت فيها المجتمع المصرى فكانت مكانا ملائما للجهد الحر الخلاق .

---

(١٨) من ٢٠ نوفمبر ١٩٢٢ الى ٥ فبراير ١٩٢٣ .

(١٩) الثقافة العدد ٨٧ فى ٢٧ أغسطس ١٩٤٠ مقال لأحمد أمين تحت عنوان « سعد فى مدرسة القضاء » .

(٢٠) مجلة القضاء الشرعى : العدد الثانى عشر فى ذى الحجة ١٣٤١ ص ٦٧٨ .